

الثقافة الإسلامية المدرسية

ونظامية بغداد

بقلم الاستاذ مصطفى جواد (بغداد)

إن اتخاذ بناية وتعيين مدرس أو أكثر فيها لتدريس جماعة من طلاب العلم يحضرونها أو يقيمون فيها وينفق عليهم صاحبها أو يجلس عليهم من ماله وعقاره ، لم يكن ذلك معروفاً في صدر الاسلام ، وإنما المعروف من مواضع التعليم « المكتب » و « الكتاب » ، فقد جاء في الأخبار قول عبد الله بن مسعود الصحابي « لقد أخذت القرآن من في رسول الله صلى الله عليه وسلم سبعين سورة ، وإن زيد بن ثابت لغلام في الكتاب له ذؤابة » . وقال أبي بن كعب « لقد قرأت القرآن وزيد هذا غلام ذو ذؤابتين يلعب بين صبيان اليهود في المكتب ^(١) » . وكان المسلمون في المدينة قد رأوا لليهود فيها « مدارس » وهي جمع « مدراس » يعلمون فيها صبيانهم قراءة التوراة ويكتبونهم الخط العبري ، ولذلك قيل في زيد « يلعب بين صبيان اليهود في المكتب » ، و... في حديث علي أنه رأى قوماً قد سدولوا ثيابهم وحج في الصلاة . فقال : « كأنهم اليهود خرجوا من قهرم » ، قال أبو عبيدة في تفسير القهر « يضم الفاء ووضع مدراسهم الذي يجتمعون فيه كالعيد يصلون فيه ويسدلون ثيابهم ^(٢) » ، وفي رواية « خرجوا من قهرم ^(٣) » ، فالمدراس عندهم كالمدرسة عند متعدي المسلمين المتأخرين ، قال الرغزبلي « واجتمعت اليهود في مدراسهم ، وهو بيت تدرس فيه التوراة » وقال ابن الأثير : « المدراس فهو البيت الذي يدرسون فيه ومفعال غريب في المكان ^(٤) » ، ومن ذلك العهد كثرت المكتبات والكتاتيب في بلاد الاسلام ، ومن آثار ذلك ما روى في أخبار أشعب الطماع ، أنه مر بمكتب وغلام يقرأ على الأستاذ « إن أبي يدعوك » فقال أشعب : « قم بين يدي حفظك الله وحفظ أباك » فقال الغلام : « إنما كنت أقرأ وودي ^(٥) » ، وقالوا في أخبار عبد ربه الصفي الحارثي زمن عبد الملك بن مروان « إنه كان معلم كتاب ^(٦) » ، وكان المكتب أيضاً يطلق على محل الكتابة الخاص ، فقد جاء في أخبار أبي حنيفة الثماني بن ثابت أنه دخل المدينة فأتى أبا عبد الله الصادق جعفرأ فسلم عليه قال هو : « ورأيت ابنه موسى في دهليزه قاعداً في مكتبه وهو صغير السن ^(٧) » .

(١) شرح ابن أبي الحديد « ١ : ٢٣٧ » و « ٤ : ٤٥٩ » (٢) الترح « ١ : ٣٦١ » (٣) نهاية ابن الأثير « ٣ : ٢٢٠ » (٤) أساس البلاغة والنهاية « ٢ : ٢٠ » (٥) الترح « ١ : ٣٢٨ » (٦) الترح « ١ : ١٠٣ » (٧) أمالي الرغزبلي « ١ : ١٠٥ » .

وبقيت هذه الحال في صدر الدولة العباسية وأواسطها، قال النضر بن شميل: «كنا ثلاثة في كتاب واحد أنا وأبو زيد الأنصاري وأبو محمد البريدي (١)»، وقيل في ترجمة أبي الحسن محمد بن عبد الله السلافي الشاعر المتوفى سنة ٣٩٣ هـ، إنه قال شعراً وهو في المكتب (٢)، ولما انتقلت المدارس العالية بالمعنى من البيوت والمساجد إلى المدارس الكبيرة بالاسم والحقيقة بنى المكتب والكتاتيب على عهدنا السابق، فكانت بمثابة مدارس الاستعداد والتجهيز والابتداء اليوم، ولنا معنى بانتقال المدارس من البيوت والمساجد إلى مواضعها المصطلح عليها اقتطاعها بجرة من البيوت والمساجد، فذلك ليس بمراد لأننا نرى في كتب التاريخ من يقول: «قرأت عليه الكتاب القلاني بداره» و«سمعت منه كذا في المسجد القلاني» في حين كانت المدارس منتشرة بميقاتها المعلومة، ومن ذلك قول عبد الحميد بن أبي الحديد في خبر نبش القبور الأموية: «قرأت هذا الخبر على الثقيب أبي جعفر يحيى بن أبي زيد العلوي بن عبد الله في سنة خمس وستائة وقلت له (٣)»، وقال في موضع آخر «حضرت عند محمد بن معد العلوي في داره ببغداد وعند حسن بن معالي الحلبي المعروف بابن البافلاوي وهما يقرآن هذا الخبر (٤) وهذه الأحاديث من تاريخ الطبري...»، وقال في موضع ثالث «حضرت عند محمد بن معد العلوي الموسوي الفقيه على رأي الشيعة الإمامية - رحمهم الله - في داره بدرج الدواب في سنة ثمان وستائة وقارىء يقرأ عنده مغازي الواقدي (٥)»، وكانت المدارس ببغداد إذ ذاك نحو الثلاثين مدرسة، وما منها مدرسة إلا وهي يقصر الوصف عنها (٦)، منها النظامية والتنسية، والتنقية، والجليلية، والحنيفية، ودار الذهب الأصبهانية، والكفالية، والسهروردية، والناصرية، والتاجية، فذلك الأسلوب من التعليم لم ينقطع استفحاله إلا في هذا العصر، ولم يبق منه إلا شيء قليل بحكم النادر.

وأول من أسس المدارس على هيئتها المعلومة - التي أشرنا إليها - السيد الشريف الرضي محمد ابن أبي أحمد الحسين الموسوي شاعر فريش المشهور المتوفى سنة ٤٠٦ هـ، فقد كان متخذاً للتلاميذ داراً بالكرخ وسمّاها «دار العلم»، وعين للطلاب جميع ما يحتاجون إليه. قيل: أوسل إليه الوزير المهدي الحسن بن محمد بألف دينار، فردها إليه أولى وثانية، فبعث بها للمهلب الثالثة وقال في رسالته: «يقرؤها الشريف على ملازميه من طلاب العلم»، فلما أحضر مطلق الدنانير بين الطلاب قال الشريف للرسول: «هات حضور فليأخذ كل أحد ما يريد»، فقام رجل وأخذ ديناراً فقرض من جانبه قطعة وأخذها ورد الدينار إلى المطلق، فسأله الشريف

(١) الوفيات ١: ٢٢٣ - (٢) الوفيات ٢: ١٠٣ - (٣) القصر ٢: ٢٠٥ - (٤) خبر شميل النبي - سني الله عليه وسلم - وتكليفه (٥) شرح ابن أبي الحديد ٣: ١٩٢ - (٦) رحلة ابن أبي جحج

عن ذلك فقال : « احتجت إلى دهن للسراج ليلة ولم يكن الخازن حاضراً فافتضت من فلان البقال دهنًا وأخذت هذه القطعة لأدفعها إليه » ، فأمر الشريف في الحال بأن يتخذ خزانة الخبايا مفتوح بقدر عدد الطلبة ليأخذ كل ما يحتاج إليه ولا ينتظر خازنًا ، ورد الطبق على هذه الصورة (١) ؛ هكذا كان طلاب العلم وقيسة العرفان ، ودار العلم هذه غير دار العلم التي اتخذها أبو نصر سابور بن أردشير وزير بهاء الدولة البويهى المتوفى سنة ١٠٤١ هـ ، فإن هذه كانت خزانة كتب يردها نهاء العلم وعشاش الحقائق (٢) ، فلنا ذلك لأن الدارين كانتا ببغداد بالجانب الغربي فوجبت إزالة الالتباس .

فيظهر للتحرى أن دار العلم الرضوية هي المدرسة الأولى في نوعها ، ولكنها لم يطلق عليها اسم « المدرسة » ، وقد أخطأ قاضي القضاة شمس الدين أحمد بن خلكان حيث قال عن نظام الملك الحسن بن علي الطوسي المقتول سنة ٨٥٠ هـ ما نصه « وهو أول من أنشأ المدارس فاعتدى به الناس » ، فبين وفاة الشريف ووفاته مدة ٧٩ سنة ، فأين يقع هذا القول من الحقيقة ؟

المدرسة النظامية ببغداد

شرع في عمارتها نظام الملك المذكور في سنة ٥٧٠ هـ في شهر ذي الحجة منها وانتهى منها سنة ٥٩٠ هـ ، وفتحت يوم السبت عاشر ذي القعدة من السنة ، وكان نظام الملك أمر أن يكون المدرس فيها أبو اسحاق ابراهيم بن علي الشيرازي ، وشرط في أمرها أن لا يدرس فيها إلا شافعي ، وكان الوزير قد قرر مع أبي اسحق الشيرازي الحضور يوم افتتاحها للتدريس فلم يحضر ، وكان الناس قد حضروا المدرسة على اختلاف طبقاتهم فبحثوا عنه فلم يجدوه ، فاستدعى الوزير للتدريس فيها أبا نصر عبد السيد بن محمد المعروف بابن الصباغ ورتبه فيها مدرساً ، ثم ظهر الشيخ أبو اسحق الشيرازي في مسجده الذي كان يدرس فيه ، وتغير عليه أصحابه بسبب فعلته وفتروا عن حضور دروسه وراسلوه في أنه إن لم يدرس بالنظامية مضوا إلى ابن الصباغ وتركوه ، فأجابهم إلى ذلك وعزل ابن الصباغ من المدرسة بعد تدرسه عشرين يوماً (٣) . قيل : ولما بلغ علماء ما وراء النهر خبير بناء النظامية اتخذوا للعلم مأتماً وحزنوا على سقوط حرمة العلم وقالوا : « إن العلم ملكة شريفة فاضلة لا يتطلبها إلا النفوس الشريفة الفاضلة للجاذب الشرف والذات والمناسبة العليمية ، ولما جعل عليه أجرة تتطلبه النفوس الرذلة وتجعله مكسباً لحطام الدنيا ، ويتراحم عليه لا لتحصيل شرف العلم ، بل لتحصيل المناصب الدنيوية السفلة القانية ، فيرذل العلم برذالتهم ، ولا يشرفون بشرفه » ، ألا ترى إلى علم الطب ، فإنه مع كونه

(١) عدة المطالب أنساب آل أبي طالب « ص ١٨٥ - ١٨٦ » (٢) الوثائق - ١ : ٢١٧ - وتاريخ الخلفاء - لبيوطي ص ٤٢٣ ، مجمع البلدان في مادة « بن السورين » (٣) الوثائق - ١ : ١٥٧ ، ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٣٨ ، ٤٣٩ ، ٤٤٠ ، ٤٤١ ، ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ ، ٤٤٦ ، ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٤٥٥ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ ، ٤٥٨ ، ٤٥٩ ، ٤٦٠ ، ٤٦١ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ ، ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ ، ٤٦٧ ، ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤٧٠ ، ٤٧١ ، ٤٧٢ ، ٤٧٣ ، ٤٧٤ ، ٤٧٥ ، ٤٧٦ ، ٤٧٧ ، ٤٧٨ ، ٤٧٩ ، ٤٨٠ ، ٤٨١ ، ٤٨٢ ، ٤٨٣ ، ٤٨٤ ، ٤٨٥ ، ٤٨٦ ، ٤٨٧ ، ٤٨٨ ، ٤٨٩ ، ٤٩٠ ، ٤٩١ ، ٤٩٢ ، ٤٩٣ ، ٤٩٤ ، ٤٩٥ ، ٤٩٦ ، ٤٩٧ ، ٤٩٨ ، ٤٩٩ ، ٥٠٠ ، ٥٠١ ، ٥٠٢ ، ٥٠٣ ، ٥٠٤ ، ٥٠٥ ، ٥٠٦ ، ٥٠٧ ، ٥٠٨ ، ٥٠٩ ، ٥١٠ ، ٥١١ ، ٥١٢ ، ٥١٣ ، ٥١٤ ، ٥١٥ ، ٥١٦ ، ٥١٧ ، ٥١٨ ، ٥١٩ ، ٥٢٠ ، ٥٢١ ، ٥٢٢ ، ٥٢٣ ، ٥٢٤ ، ٥٢٥ ، ٥٢٦ ، ٥٢٧ ، ٥٢٨ ، ٥٢٩ ، ٥٣٠ ، ٥٣١ ، ٥٣٢ ، ٥٣٣ ، ٥٣٤ ، ٥٣٥ ، ٥٣٦ ، ٥٣٧ ، ٥٣٨ ، ٥٣٩ ، ٥٤٠ ، ٥٤١ ، ٥٤٢ ، ٥٤٣ ، ٥٤٤ ، ٥٤٥ ، ٥٤٦ ، ٥٤٧ ، ٥٤٨ ، ٥٤٩ ، ٥٥٠ ، ٥٥١ ، ٥٥٢ ، ٥٥٣ ، ٥٥٤ ، ٥٥٥ ، ٥٥٦ ، ٥٥٧ ، ٥٥٨ ، ٥٥٩ ، ٥٦٠ ، ٥٦١ ، ٥٦٢ ، ٥٦٣ ، ٥٦٤ ، ٥٦٥ ، ٥٦٦ ، ٥٦٧ ، ٥٦٨ ، ٥٦٩ ، ٥٧٠ ، ٥٧١ ، ٥٧٢ ، ٥٧٣ ، ٥٧٤ ، ٥٧٥ ، ٥٧٦ ، ٥٧٧ ، ٥٧٨ ، ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، ٥٨١ ، ٥٨٢ ، ٥٨٣ ، ٥٨٤ ، ٥٨٥ ، ٥٨٦ ، ٥٨٧ ، ٥٨٨ ، ٥٨٩ ، ٥٩٠ ، ٥٩١ ، ٥٩٢ ، ٥٩٣ ، ٥٩٤ ، ٥٩٥ ، ٥٩٦ ، ٥٩٧ ، ٥٩٨ ، ٥٩٩ ، ٦٠٠ ، ٦٠١ ، ٦٠٢ ، ٦٠٣ ، ٦٠٤ ، ٦٠٥ ، ٦٠٦ ، ٦٠٧ ، ٦٠٨ ، ٦٠٩ ، ٦١٠ ، ٦١١ ، ٦١٢ ، ٦١٣ ، ٦١٤ ، ٦١٥ ، ٦١٦ ، ٦١٧ ، ٦١٨ ، ٦١٩ ، ٦٢٠ ، ٦٢١ ، ٦٢٢ ، ٦٢٣ ، ٦٢٤ ، ٦٢٥ ، ٦٢٦ ، ٦٢٧ ، ٦٢٨ ، ٦٢٩ ، ٦٣٠ ، ٦٣١ ، ٦٣٢ ، ٦٣٣ ، ٦٣٤ ، ٦٣٥ ، ٦٣٦ ، ٦٣٧ ، ٦٣٨ ، ٦٣٩ ، ٦٤٠ ، ٦٤١ ، ٦٤٢ ، ٦٤٣ ، ٦٤٤ ، ٦٤٥ ، ٦٤٦ ، ٦٤٧ ، ٦٤٨ ، ٦٤٩ ، ٦٥٠ ، ٦٥١ ، ٦٥٢ ، ٦٥٣ ، ٦٥٤ ، ٦٥٥ ، ٦٥٦ ، ٦٥٧ ، ٦٥٨ ، ٦٥٩ ، ٦٦٠ ، ٦٦١ ، ٦٦٢ ، ٦٦٣ ، ٦٦٤ ، ٦٦٥ ، ٦٦٦ ، ٦٦٧ ، ٦٦٨ ، ٦٦٩ ، ٦٧٠ ، ٦٧١ ، ٦٧٢ ، ٦٧٣ ، ٦٧٤ ، ٦٧٥ ، ٦٧٦ ، ٦٧٧ ، ٦٧٨ ، ٦٧٩ ، ٦٨٠ ، ٦٨١ ، ٦٨٢ ، ٦٨٣ ، ٦٨٤ ، ٦٨٥ ، ٦٨٦ ، ٦٨٧ ، ٦٨٨ ، ٦٨٩ ، ٦٩٠ ، ٦٩١ ، ٦٩٢ ، ٦٩٣ ، ٦٩٤ ، ٦٩٥ ، ٦٩٦ ، ٦٩٧ ، ٦٩٨ ، ٦٩٩ ، ٧٠٠ ، ٧٠١ ، ٧٠٢ ، ٧٠٣ ، ٧٠٤ ، ٧٠٥ ، ٧٠٦ ، ٧٠٧ ، ٧٠٨ ، ٧٠٩ ، ٧١٠ ، ٧١١ ، ٧١٢ ، ٧١٣ ، ٧١٤ ، ٧١٥ ، ٧١٦ ، ٧١٧ ، ٧١٨ ، ٧١٩ ، ٧٢٠ ، ٧٢١ ، ٧٢٢ ، ٧٢٣ ، ٧٢٤ ، ٧٢٥ ، ٧٢٦ ، ٧٢٧ ، ٧٢٨ ، ٧٢٩ ، ٧٣٠ ، ٧٣١ ، ٧٣٢ ، ٧٣٣ ، ٧٣٤ ، ٧٣٥ ، ٧٣٦ ، ٧٣٧ ، ٧٣٨ ، ٧٣٩ ، ٧٤٠ ، ٧٤١ ، ٧٤٢ ، ٧٤٣ ، ٧٤٤ ، ٧٤٥ ، ٧٤٦ ، ٧٤٧ ، ٧٤٨ ، ٧٤٩ ، ٧٥٠ ، ٧٥١ ، ٧٥٢ ، ٧٥٣ ، ٧٥٤ ، ٧٥٥ ، ٧٥٦ ، ٧٥٧ ، ٧٥٨ ، ٧٥٩ ، ٧٦٠ ، ٧٦١ ، ٧٦٢ ، ٧٦٣ ، ٧٦٤ ، ٧٦٥ ، ٧٦٦ ، ٧٦٧ ، ٧٦٨ ، ٧٦٩ ، ٧٧٠ ، ٧٧١ ، ٧٧٢ ، ٧٧٣ ، ٧٧٤ ، ٧٧٥ ، ٧٧٦ ، ٧٧٧ ، ٧٧٨ ، ٧٧٩ ، ٧٨٠ ، ٧٨١ ، ٧٨٢ ، ٧٨٣ ، ٧٨٤ ، ٧٨٥ ، ٧٨٦ ، ٧٨٧ ، ٧٨٨ ، ٧٨٩ ، ٧٩٠ ، ٧٩١ ، ٧٩٢ ، ٧٩٣ ، ٧٩٤ ، ٧٩٥ ، ٧٩٦ ، ٧٩٧ ، ٧٩٨ ، ٧٩٩ ، ٨٠٠ ، ٨٠١ ، ٨٠٢ ، ٨٠٣ ، ٨٠٤ ، ٨٠٥ ، ٨٠٦ ، ٨٠٧ ، ٨٠٨ ، ٨٠٩ ، ٨١٠ ، ٨١١ ، ٨١٢ ، ٨١٣ ، ٨١٤ ، ٨١٥ ، ٨١٦ ، ٨١٧ ، ٨١٨ ، ٨١٩ ، ٨٢٠ ، ٨٢١ ، ٨٢٢ ، ٨٢٣ ، ٨٢٤ ، ٨٢٥ ، ٨٢٦ ، ٨٢٧ ، ٨٢٨ ، ٨٢٩ ، ٨٣٠ ، ٨٣١ ، ٨٣٢ ، ٨٣٣ ، ٨٣٤ ، ٨٣٥ ، ٨٣٦ ، ٨٣٧ ، ٨٣٨ ، ٨٣٩ ، ٨٤٠ ، ٨٤١ ، ٨٤٢ ، ٨٤٣ ، ٨٤٤ ، ٨٤٥ ، ٨٤٦ ، ٨٤٧ ، ٨٤٨ ، ٨٤٩ ، ٨٥٠ ، ٨٥١ ، ٨٥٢ ، ٨٥٣ ، ٨٥٤ ، ٨٥٥ ، ٨٥٦ ، ٨٥٧ ، ٨٥٨ ، ٨٥٩ ، ٨٦٠ ، ٨٦١ ، ٨٦٢ ، ٨٦٣ ، ٨٦٤ ، ٨٦٥ ، ٨٦٦ ، ٨٦٧ ، ٨٦٨ ، ٨٦٩ ، ٨٧٠ ، ٨٧١ ، ٨٧٢ ، ٨٧٣ ، ٨٧٤ ، ٨٧٥ ، ٨٧٦ ، ٨٧٧ ، ٨٧٨ ، ٨٧٩ ، ٨٨٠ ، ٨٨١ ، ٨٨٢ ، ٨٨٣ ، ٨٨٤ ، ٨٨٥ ، ٨٨٦ ، ٨٨٧ ، ٨٨٨ ، ٨٨٩ ، ٨٩٠ ، ٨٩١ ، ٨٩٢ ، ٨٩٣ ، ٨٩٤ ، ٨٩٥ ، ٨٩٦ ، ٨٩٧ ، ٨٩٨ ، ٨٩٩ ، ٩٠٠ ، ٩٠١ ، ٩٠٢ ، ٩٠٣ ، ٩٠٤ ، ٩٠٥ ، ٩٠٦ ، ٩٠٧ ، ٩٠٨ ، ٩٠٩ ، ٩١٠ ، ٩١١ ، ٩١٢ ، ٩١٣ ، ٩١٤ ، ٩١٥ ، ٩١٦ ، ٩١٧ ، ٩١٨ ، ٩١٩ ، ٩٢٠ ، ٩٢١ ، ٩٢٢ ، ٩٢٣ ، ٩٢٤ ، ٩٢٥ ، ٩٢٦ ، ٩٢٧ ، ٩٢٨ ، ٩٢٩ ، ٩٣٠ ، ٩٣١ ، ٩٣٢ ، ٩٣٣ ، ٩٣٤ ، ٩٣٥ ، ٩٣٦ ، ٩٣٧ ، ٩٣٨ ، ٩٣٩ ، ٩٤٠ ، ٩٤١ ، ٩٤٢ ، ٩٤٣ ، ٩٤٤ ، ٩٤٥ ، ٩٤٦ ، ٩٤٧ ، ٩٤٨ ، ٩٤٩ ، ٩٥٠ ، ٩٥١ ، ٩٥٢ ، ٩٥٣ ، ٩٥٤ ، ٩٥٥ ، ٩٥٦ ، ٩٥٧ ، ٩٥٨ ، ٩٥٩ ، ٩٦٠ ، ٩٦١ ، ٩٦٢ ، ٩٦٣ ، ٩٦٤ ، ٩٦٥ ، ٩٦٦ ، ٩٦٧ ، ٩٦٨ ، ٩٦٩ ، ٩٧٠ ، ٩٧١ ، ٩٧٢ ، ٩٧٣ ، ٩٧٤ ، ٩٧٥ ، ٩٧٦ ، ٩٧٧ ، ٩٧٨ ، ٩٧٩ ، ٩٨٠ ، ٩٨١ ، ٩٨٢ ، ٩٨٣ ، ٩٨٤ ، ٩٨٥ ، ٩٨٦ ، ٩٨٧ ، ٩٨٨ ، ٩٨٩ ، ٩٩٠ ، ٩٩١ ، ٩٩٢ ، ٩٩٣ ، ٩٩٤ ، ٩٩٥ ، ٩٩٦ ، ٩٩٧ ، ٩٩٨ ، ٩٩٩ ، ١٠٠٠ ، ١٠٠١ ، ١٠٠٢ ، ١٠٠٣ ، ١٠٠٤ ، ١٠٠٥ ، ١٠٠٦ ، ١٠٠٧ ، ١٠٠٨ ، ١٠٠٩ ، ١٠١٠ ، ١٠١١ ، ١٠١٢ ، ١٠١٣ ، ١٠١٤ ، ١٠١٥ ، ١٠١٦ ، ١٠١٧ ، ١٠١٨ ، ١٠١٩ ، ١٠٢٠ ، ١٠٢١ ، ١٠٢٢ ، ١٠٢٣ ، ١٠٢٤ ، ١٠٢٥ ، ١٠٢٦ ، ١٠٢٧ ، ١٠٢٨ ، ١٠٢٩ ، ١٠٣٠ ، ١٠٣١ ، ١٠٣٢ ، ١٠٣٣ ، ١٠٣٤ ، ١٠٣٥ ، ١٠٣٦ ، ١٠٣٧ ، ١٠٣٨ ، ١٠٣٩ ، ١٠٤٠ ، ١٠٤١ ، ١٠٤٢ ، ١٠٤٣ ، ١٠٤٤ ، ١٠٤٥ ، ١٠٤٦ ، ١٠٤٧ ، ١٠٤٨ ، ١٠٤٩ ، ١٠٥٠ ، ١٠٥١ ، ١٠٥٢ ، ١٠٥٣ ، ١٠٥٤ ، ١٠٥٥ ، ١٠٥٦ ، ١٠٥٧ ، ١٠٥٨ ، ١٠٥٩ ، ١٠٦٠ ، ١٠٦١ ، ١٠٦٢ ، ١٠٦٣ ، ١٠٦٤ ، ١٠٦٥ ، ١٠٦٦ ، ١٠٦٧ ، ١٠٦٨ ، ١٠٦٩ ، ١٠٧٠ ، ١٠٧١ ، ١٠٧٢ ، ١٠٧٣ ، ١٠٧٤ ، ١٠٧٥ ، ١٠٧٦ ، ١٠٧٧ ، ١٠٧٨ ، ١٠٧٩ ، ١٠٨٠ ، ١٠٨١ ، ١٠٨٢ ، ١٠٨٣ ، ١٠٨٤ ، ١٠٨٥ ، ١٠٨٦ ، ١٠٨٧ ، ١٠٨٨ ، ١٠٨٩ ، ١٠٩٠ ، ١٠٩١ ، ١٠٩٢ ، ١٠٩٣ ، ١٠٩٤ ، ١٠٩٥ ، ١٠٩٦ ، ١٠٩٧ ، ١٠٩٨ ، ١٠٩٩ ، ١١٠٠ ، ١١٠١ ، ١١٠٢ ، ١١٠٣ ، ١١٠٤ ، ١١٠٥ ، ١١٠٦ ، ١١٠٧ ، ١١٠٨ ، ١١٠٩ ، ١١١٠ ، ١١١١ ، ١١١٢ ، ١١١٣ ، ١١١٤ ، ١١١٥ ، ١١١٦ ، ١١١٧ ، ١١١٨ ، ١١١٩ ، ١١٢٠ ، ١١٢١ ، ١١٢٢ ، ١١٢٣ ، ١١٢٤ ، ١١٢٥ ، ١١٢٦ ، ١١٢٧ ، ١١٢٨ ، ١١٢٩ ، ١١٣٠ ، ١١٣١ ، ١١٣٢ ، ١١٣٣ ، ١١٣٤ ، ١١٣٥ ، ١١٣٦ ، ١١٣٧ ، ١١٣٨ ، ١١٣٩ ، ١١٤٠ ، ١١٤١ ، ١١٤٢ ، ١١٤٣ ، ١١٤٤ ، ١١٤٥ ، ١١٤٦ ، ١١٤٧ ، ١١٤٨ ، ١١٤٩ ، ١١٥٠ ، ١١٥١ ، ١١٥٢ ، ١١٥٣ ، ١١٥٤ ، ١١٥٥ ، ١١٥٦ ، ١١٥٧ ، ١١٥٨ ، ١١٥٩ ، ١١٦٠ ، ١١٦١ ، ١١٦٢ ، ١١٦٣ ، ١١٦٤ ، ١١٦٥ ، ١١٦٦ ، ١١٦٧ ، ١١٦٨ ، ١١٦٩ ، ١١٧٠ ، ١١٧١ ، ١١٧٢ ، ١١٧٣ ، ١١٧٤ ، ١١٧٥ ، ١١٧٦ ، ١١٧٧ ، ١١٧٨ ، ١١٧٩ ، ١١٨٠ ، ١١٨١ ، ١١٨٢ ، ١١٨٣ ، ١١٨٤ ، ١١٨٥ ، ١١٨٦ ، ١١٨٧ ، ١١٨٨ ، ١١٨٩ ، ١١٩٠ ، ١١٩١ ، ١١٩٢ ، ١١٩٣ ، ١١٩٤ ، ١١٩٥ ، ١١٩٦ ، ١١٩٧ ، ١١٩٨ ، ١١٩٩ ، ١٢٠٠ ، ١٢٠١ ، ١٢٠٢ ، ١٢٠٣ ، ١٢٠٤ ، ١٢٠٥ ، ١٢٠٦ ، ١٢٠٧ ، ١٢٠٨ ، ١٢٠٩ ، ١٢١٠ ، ١٢١١ ، ١٢١٢ ، ١٢١٣ ، ١٢١٤ ، ١٢١٥ ، ١٢١٦ ، ١٢١٧ ، ١٢١٨ ، ١٢١٩ ، ١٢٢٠ ، ١٢٢١ ، ١٢٢٢ ، ١٢٢٣ ، ١٢٢٤ ، ١٢٢٥ ، ١٢٢٦ ، ١٢٢٧ ، ١٢٢٨ ، ١٢٢٩ ، ١٢٣٠ ، ١٢٣١ ، ١٢٣٢ ، ١٢٣٣ ، ١٢٣٤ ، ١٢٣٥ ، ١٢٣٦ ، ١٢٣٧ ، ١٢٣٨ ، ١٢٣٩ ، ١٢٤٠ ، ١٢٤١ ، ١٢٤٢ ، ١٢٤٣ ، ١٢٤٤ ، ١٢٤٥ ، ١٢٤٦ ، ١٢٤٧ ، ١٢٤٨ ، ١٢٤٩ ، ١٢٥٠ ، ١٢٥١ ، ١٢٥٢ ، ١٢٥٣ ، ١٢٥٤ ، ١٢٥٥ ، ١٢٥٦ ، ١٢٥٧ ، ١٢٥٨ ، ١٢٥٩ ، ١٢٦٠ ، ١٢٦١ ، ١٢٦٢ ، ١٢٦٣ ، ١٢٦٤ ، ١٢٦٥ ، ١٢٦٦ ، ١٢٦٧ ، ١٢٦٨ ، ١٢٦٩ ، ١٢٧٠ ، ١٢٧١ ، ١٢٧٢ ، ١٢٧٣ ، ١٢٧٤ ، ١٢٧٥ ، ١٢٧٦ ، ١٢٧٧ ، ١٢٧٨ ، ١٢٧٩ ، ١٢٨٠ ، ١٢٨١ ، ١٢٨٢ ، ١٢٨٣ ، ١٢٨٤ ، ١٢٨٥ ، ١٢٨٦ ، ١٢٨٧ ، ١٢٨٨ ، ١٢٨٩ ، ١٢٩٠ ، ١٢٩١ ، ١٢٩٢ ، ١٢٩٣ ، ١٢٩٤ ، ١٢٩٥ ، ١٢٩٦ ، ١٢٩٧ ، ١٢٩٨ ، ١٢٩٩ ، ١٣٠٠ ، ١٣٠١ ، ١٣٠٢ ، ١٣٠٣ ، ١٣٠٤ ، ١٣٠٥ ، ١٣٠٦ ، ١٣٠٧ ، ١٣٠٨ ، ١٣٠٩ ، ١٣١٠ ، ١٣١١ ، ١٣١٢ ، ١٣١٣ ، ١٣١٤ ، ١٣١٥ ، ١٣١٦ ، ١٣١٧ ، ١٣١٨ ، ١٣١٩ ، ١٣٢٠ ، ١٣٢١ ، ١٣٢٢ ، ١٣٢٣ ، ١٣٢٤ ، ١٣٢٥ ، ١٣٢٦ ، ١٣٢٧ ، ١٣٢٨ ، ١٣٢٩ ، ١٣٣٠ ، ١٣٣١ ، ١٣٣٢ ، ١٣٣٣ ، ١٣٣٤ ، ١٣٣٥ ، ١٣٣٦ ، ١٣٣٧ ، ١٣٣٨ ، ١٣٣٩ ، ١٣٤٠ ، ١٣٤١ ، ١٣٤٢ ، ١٣٤٣ ، ١٣٤٤ ، ١٣٤٥ ، ١٣٤٦ ، ١٣٤٧ ، ١٣٤٨ ، ١٣٤٩ ، ١٣٥٠ ، ١٣٥١ ، ١٣٥٢ ، ١٣٥٣ ، ١٣٥٤ ، ١٣٥٥ ، ١٣٥٦ ، ١٣٥٧ ، ١٣٥٨ ، ١٣٥٩ ، ١٣٦٠ ، ١٣٦١ ، ١٣٦٢ ، ١٣٦٣ ، ١٣٦٤ ، ١٣٦٥ ، ١٣٦٦ ، ١٣٦٧ ، ١٣٦٨ ، ١٣٦٩ ، ١٣٧٠ ، ١٣٧١ ، ١٣٧٢ ، ١٣٧٣ ، ١٣٧٤ ، ١٣٧٥ ، ١٣٧٦ ، ١٣٧٧ ، ١٣٧٨ ، ١٣٧٩ ، ١٣٨٠ ، ١٣٨١ ، ١٣٨٢ ، ١٣٨٣ ، ١٣٨٤ ، ١٣٨٥ ، ١٣٨٦ ، ١٣٨٧ ، ١٣٨٨ ، ١٣٨٩ ، ١٣٩٠ ، ١٣٩١ ، ١٣٩٢ ، ١٣٩٣ ، ١٣٩٤ ، ١٣٩٥ ، ١٣٩٦ ، ١٣٩٧ ، ١٣٩٨ ، ١٣٩٩ ، ١٤٠٠ ، ١٤٠١ ، ١٤٠٢ ، ١٤٠٣ ، ١٤٠٤ ، ١٤٠٥ ، ١٤٠٦ ، ١٤٠٧ ، ١٤٠٨ ، ١٤٠٩ ، ١٤١٠ ، ١٤١١ ، ١٤١٢ ، ١٤١٣ ، ١٤١٤ ، ١٤١٥ ، ١٤١٦ ، ١٤١٧ ، ١٤١٨ ، ١٤١٩ ، ١٤٢٠ ، ١٤٢١ ، ١٤٢٢ ، ١٤٢٣ ، ١٤٢٤ ، ١٤٢٥ ، ١٤٢٦ ، ١٤٢٧ ، ١٤٢٨ ، ١٤٢٩ ، ١٤٣٠ ، ١٤٣١ ، ١٤٣٢ ، ١٤٣٣ ، ١٤٣٤ ، ١٤٣٥ ، ١٤٣٦ ، ١٤٣٧ ، ١٤٣٨ ، ١٤٣٩ ، ١٤٤٠ ، ١٤٤١ ، ١٤٤٢ ، ١٤٤٣ ، ١٤٤٤ ، ١٤٤٥ ، ١٤٤٦ ، ١٤٤٧ ، ١٤٤٨ ، ١٤٤٩ ، ١٤٥٠ ، ١٤٥١ ، ١٤٥٢ ، ١٤٥٣ ، ١٤٥٤ ، ١٤٥٥ ، ١٤٥٦ ، ١٤٥٧ ، ١٤٥٨ ، ١٤٥٩ ، ١٤٦٠ ، ١٤٦١ ، ١٤٦٢ ، ١٤٦٣ ، ١٤٦٤ ، ١٤٦٥ ، ١٤٦٦ ، ١٤٦٧ ، ١٤٦٨ ، ١٤٦٩ ، ١٤٧٠ ، ١٤٧١ ، ١٤٧٢ ، ١٤٧٣ ، ١٤٧٤ ، ١٤٧٥ ، ١٤٧٦ ، ١٤٧٧ ، ١٤٧٨ ، ١٤٧٩ ، ١٤٨٠ ، ١٤٨١ ، ١٤٨٢ ، ١٤٨٣ ، ١٤٨٤ ، ١٤٨٥ ، ١٤٨٦ ، ١٤٨٧ ، ١٤٨٨ ، ١٤٨٩ ، ١٤٩٠ ، ١٤٩١ ، ١٤٩٢ ، ١٤٩٣ ، ١٤٩٤ ، ١٤٩٥ ، ١٤٩٦ ، ١٤٩٧ ، ١٤٩٨ ، ١٤٩٩ ، ١٥٠٠ ، ١٥٠١ ، ١٥٠٢ ، ١٥٠٣ ، ١٥٠٤ ، ١٥٠٥ ، ١٥٠٦ ، ١٥٠٧ ، ١٥٠٨ ، ١٥٠٩ ، ١٥١٠ ، ١٥١١ ، ١٥١٢ ، ١٥١٣ ، ١٥١٤ ، ١٥١٥ ، ١٥١٦ ، ١٥١٧ ، ١٥١٨ ، ١٥١٩ ، ١٥٢٠ ، ١٥٢١ ، ١٥٢٢ ، ١٥٢٣ ، ١٥٢٤ ، ١٥٢٥ ، ١٥٢٦ ، ١٥٢٧ ، ١٥٢٨ ، ١٥٢٩ ، ١٥٣٠ ، ١٥٣١ ، ١٥٣٢ ، ١٥٣٣ ، ١٥٣٤ ، ١٥٣٥ ، ١٥٣٦ ، ١٥٣٧ ، ١٥٣٨ ، ١٥٣٩ ، ١٥٤٠ ، ١٥٤١ ، ١٥٤٢ ، ١٥٤٣ ، ١٥٤٤ ، ١٥٤٥ ، ١٥٤٦ ، ١٥٤٧ ، ١٥٤٨ ، ١٥٤٩ ، ١٥٥٠ ، ١٥٥١ ، ١٥٥٢ ، ١٥٥٣ ، ١٥٥٤ ، ١٥٥٥ ، ١٥٥٦ ، ١٥٥٧ ، ١٥٥٨ ، ١٥٥٩ ، ١٥٦٠ ، ١٥٦١ ، ١٥٦٢ ، ١٥٦٣ ، ١٥٦٤ ، ١٥٦٥ ، ١٥٦٦ ، ١٥٦٧ ، ١٥٦٨ ، ١٥٦٩ ، ١٥٧٠ ، ١٥٧١ ، ١٥٧٢ ، ١٥٧٣ ، ١٥٧٤ ، ١٥٧٥ ، ١٥٧٦ ، ١٥٧٧ ، ١٥٧٨ ، ١٥٧٩ ، ١٥٨٠ ، ١٥٨١ ، ١٥٨٢ ، ١٥٨٣ ، ١٥٨٤ ، ١٥٨٥ ، ١٥٨٦ ، ١٥٨٧ ، ١٥٨٨ ، ١٥٨٩ ، ١٥٩٠ ، ١٥٩١ ، ١٥٩٢ ، ١٥٩٣ ، ١٥٩٤ ، ١٥٩٥ ، ١٥٩٦ ، ١٥٩٧ ، ١٥٩٨ ، ١٥٩٩ ، ١٦٠٠ ، ١٦٠١ ، ١٦٠٢ ، ١٦٠٣ ، ١٦٠٤ ، ١٦٠٥ ، ١٦٠٦ ، ١٦٠٧ ، ١٦٠٨ ، ١٦٠٩ ، ١٦١٠ ، ١٦١١ ، ١٦١٢ ، ١٦١٣ ، ١٦١٤ ، ١٦١٥ ، ١٦١٦ ، ١٦١٧ ، ١٦١٨ ، ١٦١٩ ، ١٦٢٠ ، ١٦٢١ ، ١٦٢٢ ، ١٦٢٣ ، ١٦٢٤ ، ١٦٢٥ ، ١٦٢٦ ، ١٦٢٧ ، ١٦٢٨ ، ١٦٢٩ ، ١٦٣٠ ، ١٦٣١ ، ١٦٣٢ ، ١٦٣٣ ، ١٦٣٤ ، ١٦٣٥ ، ١٦٣٦ ، ١٦٣٧ ، ١٦٣٨ ، ١٦٣٩ ، ١٦٤٠ ، ١٦٤١ ، ١٦٤٢ ، ١٦٤٣ ، ١٦٤٤ ، ١٦٤٥ ، ١٦٤٦ ، ١٦٤٧ ، ١٦٤٨ ، ١٦٤٩ ، ١٦٥٠ ، ١٦٥١ ، ١٦٥٢ ، ١٦٥٣ ، ١٦٥٤ ، ١٦٥٥ ، ١٦٥٦ ، ١٦٥٧ ، ١٦٥٨ ، ١٦٥٩ ، ١٦٦٠ ، ١٦٦١ ، ١٦٦٢ ، ١٦٦٣ ، ١٦٦٤ ، ١٦٦٥ ، ١٦٦٦ ، ١٦٦٧ ، ١٦٦٨ ، ١٦٦٩ ، ١٦٧٠ ، ١٦٧١ ، ١٦٧٢ ، ١٦٧٣ ، ١٦٧٤ ، ١٦٧٥ ، ١٦٧٦ ، ١٦٧٧ ، ١٦٧٨

علمًا شريفًا تعاطفته أراذل اليهود فأزروا بشرف علم العرب، وهذا حالًا أكثر طلبه العلم في هذا الزمان القاسد (١) . . . وقد شاع اسم المدرسة بظهور النظامية كما ظهرت دار الحديث ودار القرآن في التسمية .

نهج المدرسة النظامية

إن مراد القدماء بلفظ العلم هو الدين وما يؤيده ويمهده لا العلم المطلق المضاد للجهل كما هو في عصرنا ، فكان نهج النظامية فاسدًا إلى غايات خمس هي (أ) تدريس مذهب الشافعي مع علم اختلاف بينه وبين المذاهب الأخرى (ب) تدريس علم العربية من لغة ونحو وصرف (ج) تدريس التفسير بفروعه (د) الوعظ في المدرسة والحث على التمسك بالشرعية (هـ) المشافرات والمنافرات والمرجمات في الأمور المشككة وذات الاختلاف .

كان مدرس النظامية واحدًا في أول أمرها - كما مر بنا - وبمرور الزمان برزت شدة الاحتياج إلى أكثر من مدرس ، فصارت يعين لها « مدرس دين وفروعه » ومدرس لغة ونحو ، ومعيد وهو معاون للمدرس يعيد درسه على التلاميذ ليسمعوه جيدًا ويستمكن من أذهانهم ، وعين لها واعظ مشهور ، وجعل فيها خزانة كتب مخطوطة بأقلام مشاهير الكتاب ، وكان يقيم فيها العلماء والشعراء الغريباء ويستمعون بأوقافها ، وكان المدرس يجلس على سدة التدريس ويرتدى الطرحة وهي كالتبليسان ، وعند تعيين المدرس يتخلع عليه ، وبعد ما كان العلماء يتورعون عن تولي منصب التدريس ويرهبون فيه كل الزهد ، جاء زمان قوم يتنافسون في الدنيا ويتسارعون إلى تولي المنصب ، بل منهم من انتقل من مذهب إلى آخر للحصول على المنصب ، كان المبارك بن أبي طالب المبارك المعروف بابن الدهان الوجيه الواسطي حنبليًا ورتقه على مذهب أبي حنيفة ، فلما شغل منصب تدريس النحو بالمدرسة النظامية انتقل إلى مذهب الشافعي لطلبه ، فقال فيه مؤيد الدين أبو البركات بن زيد التكريتي :

ومن مبلغ عن الوجيه رسالة وإن كان لا تجدى إليه الرسائل
تمذهبت للنعمان بعد ابن حنبل وذلك لما أعوزتك الماسكي
وما اخترت قول الشافعي تدينًا ولكننا تموى الذي منه حاصل
وعما قليل أنت لا شك صائر إلى مالك فأظن لما أنا قائل (٢)

أحوال المدرسة النظامية

قال ابن جبير بعد دخوله بغداد سنة ٥٨٥ هـ في المدارس: «وأعظمها وأشهرها النظامية وهي التي ابتناها نظام الملك وجددت سنة أربع وخمسة ، ولطمة المدارس أوقاف عظيمة وعمارات

(١) الإعلام بأعلام بيت الله الحرام من ٨٦ ، والزمان المدوم زمان تعذب الدين الحنفي مؤلف ١١ ج ١ .

(٢) كتابنا - السور الضائعة من الطوالت الجامعة سنة ٦١٢ هـ وهو من الكتب المخطوطة .

بحسبة تصير إلى الفقهاء ، ويجبرون منها على الطلبة ما يتروم بهم ، ولهذا البسلاذ في أمر هذه المدارس والمارستانات شرف عظيم وغر عظيم فرحم الله واضعها الأول ، ورحم من تبع ذلك السني الصالح ، وقال في الوفا والفقهاء « فأول من شاهدنا مجلسه منهم الشيخ الامام رضي الدين القزويني رئيس الشافعية وفقهه المدرسة النظامية ، والمشار إليه في العلوم الأصولية ، حضرنا مجلسه بالمدرسة المذكورة إثر صلاة العصر من يوم الجمعة الخامس لعصر المذكور ، فصعد المنبر وأخذ الثراء أمامه في القراءة على كرسي موضوعة فتوقفوا وشوقوا وأثروا بتلاحين معجبة ونفحات عرجة مطربة ، ثم اندفع الشيخ المذكور فخطب خطبة سكون ووفار وتصرف في أفانين من العلوم من تفسير كتاب الله - عز وجل - وإيراد حديث رسوله والتكلم على معانيه ، ثم رثقته شأبيب المسائل من كل جانب ، فأجاب وما قصر ... ودفعت إليه عدة رفاع فيها (٤٠) جعل يجاوب على (١) كل واحدة منها وينبذ بها إلى أن فرغ منها وحان المساء فززل واقترب الجميع فكان مجلسه مجلس علم ووعظ وقورا هينا ، ظهرت فيه البركة والسكينة . . . وشهدنا له مجلسا ثانياً إثر صلاة العصر من يوم الجمعة الثاني عشر من الشهر المذكور ، وحضر ذلك اليوم مجلسه سيد العلماء الخراسانية ورئيس الأئمة الشافعية ، ودخل المدرسة النظامية بهز عظيم وتطريف آفاق تشوقت له النفوس ، فأخذ الامام المتقدم الذكر في وعظه مسروراً بحضوره ومتجملاً به فأتى بأفانين من العلوم على حسب المنقذم الذكر ورئيس العلماء المذكور هو صدر الدين (١) الخجندی (١٠) » .

وفي سنة ٥٨٩ ، أمر الناصر لدين الله بعمارة خزانة الكتب بالمدرسة النظامية ونقل إليها من الكتب النفيسة أوفقاً لا يوجد مثلها (١١) ، وفي سنة ٦٤٦ غرقت المدرسة النظامية مع ما غرق من بغداد بنيضان دجلة ، وبلغ علو الماء فيها ست أذرع ، ثم غرقت سنة ٦٥٣ فوقع حائط رواقها ، وفي سنة ٦٧٠ احترق سوقها جيمه وهلك فيه كثير من كان في الغرف وذهب من أموال الناس شيء كثير ، فأمر صاحب ديوان العراق علاء الدين عظامك الخويني بعمارة من حاصل أوقافها (١٢) .

وفي سنة ٦٧١ جلس الخواجه شرف الدين هرون بن الصاحب شمس الدين محمد الخويني صاحب ديوان المالك الايلخانية على السدة بالمدرسة النظامية وألقى دروساً ، وكان قد حضر المدرسة كافة أرباب الدولة والمدرسون والعلماء والفقهاء ليستمعوا دروسه ، وكان عمه مع الحاضرين ، ولما دخل محمد بن بطوطة بغداد أي سنة ٧٣٧ هـ كانت النظامية عامرة ، وقد

(١) يجاوب عليها : أي يجيب عليها جواباً ولذلك لم يقل « يجاوب عنها » لأنه في معنى آخر (٢) انشوب إلى خزانة : وراه انشوب قيل : قلته سقر الطويل سنة ٥٩٢ هـ في كتبة اسمهان (ابن الاثير ١٢: ٥٢) (٣) راحة ابن حبيب (١٩٧ - ٨ - ٩ - ٢٠٨) (٤) ابن الاثير « ١٢: ٥٤٣ » (٥) اخوات الجامعة في المائة السابقة .

أشار إليها فقال : « وهذه الجهة الشرقية من بغداد حافلة الأسواق عظيمة الترتيب ، وأعظم أسواقها سوق تعرف بسوق الثلاثاء ، (١) كل صناعة فيها على حدة ، وفي وسط هذه السوق المدرسة النظامية العجيبة التي صارت الأمثال تضرب بحسبها ، وفي آخره المدرسة المستنصرية » ، ومن هذه الكلمة الصغيرة تفد على تقدير ابن بطوطة في وصف مدارس بغداد بعكس ابن جبير ، مع أن الأول كثيراً ما أطنب وأسهب في وصف جمال البلدان والنساء في بعض البلدان .

وفي سنة ٥٧٣٩ هـ ، أي بعد دخول ابن بطوطة الأول لبغداد ذكرها « حمد الله المستوفى » المؤرخ الفارسي في كتاب « نزهة القلوب » الجغرافي ، وكنّاها « أم المدارس » في بغداد (٢) ، وجاء ذكرها مع ذكر علي بن أبي القاسم أحمد القزويني المدرس بها المتوفى سنة ٧٤٠ .

نم إن الرحالة الألماني « نيبهر كارستين » لما قدم بغداد في منتصف القرن الثامن عشر للبلاد لم يجد للنظامية أثرأ فيصفه مع ما وصفه من الآثار والأطلال (٣) ، وأسباب الزوال كثيرة في أيام بغداد الأخيرة أيام التعصب الديني والسياسي والجهل ونهذ العلم ، ولاسيما في عهد ولاية الأتراك لجهة الظلمة ، وببغداد اليوم منارة في زمان من عملة باب الأغالمة لم تبق إلا قاعدتها وليس حولها إلا البول والنائط ذهب بعضهم إلى أنها بقية منارة المدرسة النظامية ، وهو مذهب لا يرضه العقل ، ولكن يقبل غيره ، لأن المؤرخين الخططين ذكروا أن المدرسة التنشئية (وتعرف بالبهائية أيضاً) كانت في جوار النظامية ، فيجوز أن بقية المنارة منها أو من مسجد ، ووضع المؤرخ الإنجليزي لسترنج في كتابه « بغداد على عهد الخلافة العباسية » رمز النظامية في إحدى خرائطه على شاطئ دجلة « بما يقرب اليوم من شريعة السيد على السلطان ، وهذا من الغلط الواضح ، لأن النظامية كانت بمحلة نهر الملعى ببغداد ، قال أبو القاسم مكّي بن عبد السلام المقدسي في موت الخليلي المؤرخ البغدادي « وأخرجت جنازته من حجرة تلي المدرسة النظامية من نهر الملعى (٤) » ، قال ياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦ ما صورته « نهر الملعى ، وهو اليوم أعظم وأشهر محلة ببغداد ، وفيها دار الخلافة ، وهو نهر يدخل من باب بيزرز ، باق إلى الآن مستمدة من الخالص (٥) ، فيسير تحت الأرض حتى يدخل دار الخلافة ، وهو المسمى بالفردوس منسوب إلى الملعى بن طريف » ، وقال صفي الدين عبد المؤمن بن عبد الحق المتوفى سنة ٧٣٩ ما نصه « ولا أثر له الآن والمحلة المذكورة هي من عند الحديد إلى المقدم المصلح في الشارع الأعظم ، ومن الریحانيين وباب النوبختي إلى باب جامع القصر إلى العقدين ، وفيه السوق والدكاكين (٦) » وهذا ما يستحيل به كون النظامية على دجلة ، ولعل سبب

(١) هو اليوم سوق الميدان الممتد إلى قرب جامع مرجان المنطوق نحو التراب ويعرف بسوق البزازين

(٢) لسترنج ٢٩٦٥ (٣) لسترنج ٣٠٠ (٤) معجم الأدباء ٢٥٩:١ (٥) السواب « من نهر بين »

كما في تاريخ بغداد لخطيب وبناف ببغداد لابن الجوزي (٦) ، مراد الأملح على الإمسكة والباقع ص ٤٠٧

غلط هذا المؤرخ المسلمة أن الخططين ذكروا في وصف القرية إحدى محال بغداد الغربية. « أنها في الجانب الغربي مقابل مشرعة سوق المدرسة النظامية » فنان أنها مشرعة المدرسة وما هي إلا مشرعة سوقها .

مدرسو النظامية المشهورون

أبو اسحق إبراهيم بن علي الشيرازي المذكور (٣٩٣ - ٤٧٦ هـ) ، أبو نصر عبد السيد ابن الصباغ المتقدم خبره (٤٠٠ - ٤٧٧) ، أبو سعيد المنول عبد الرحمن التيسابوري (٤٢٦ ، أو ٧ - ٤٧٨) ، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي (١) (٤٥٠ - ٥٠٥) ، أبو الفتوح أحمد بن محمد الغزالي (٥٢٠) ، أبو الفتح أسعد بن أبي نصر الميمني (٥٢٧) ، أبو زكريا يحيى بن علي الخطيب التبريزي (٤٢١ - ٥٠٢) ، معين الدين أبو منصور سعيد بن محمد الرزاز (٥٣٩) ، علي بن محمد القصبي (٥١٦) ، أبو منصور موهوب بن أحمد الجواليقي (٤٦٦ - ٥٣٩) ، وأبو الحسن علي بن محمد الكياهراسي (٤٥٠ - ٥٠٤) ، أبو نصر أحمد ابن عبيد الله الشاشي ، درس سنة ٥٦٦ ، وعزل سنة ٥٦٩ ، رضى الدين أبو الخير أحمد بن اسماعيل القزويني المشار إليه آتقاً (٥٩٢) ، أبو الحسن يوسف بن رافع بن شداد ، كان بها معيداً لمدرس (٦٣٢) ، السيد السماسي محمد كان معيداً مع ابن شداد ، المبارك بن المبارك ابن الدهان (٥٣٢ - ٦١٢) ، شهاب الدين محمود بن أحمد الرنجاني (٦٥٦) ، أبو عبد الله محمد بن يحيى بن فضلان (٦٣١) ، أحمد بن ثبات الهامى (٦٣١) ، أبو محمد نجم الدين عبد الله البادراني (٦٥٥) ، شمس الدين محمد بن الكبشي (٦٩٤) ، أبو البيان نور الدين الحلبي (٦٨٧) ، محمد الدين علي بن جعفر درس بها ، ثم قتل سنة (٦٨٢) ، نجم الدين بن أبي العز درس بها سنة (٦٨٧) ، نصير الدين الفاروق عين للتدريس بها سنة ٦٨٧ ، علي بن أبي القاسم أحمد القزويني توفي سنة ٧٤٠ ، وقد قدمنا ذكره ، علي ابن أحمد الموصل كان معيداً بها ، وفي سنة ٦٩٢ أنجز كتابة ترجمة الشاهنامه بالعربية لهبنداري .

بعض خزائن الكتب النظامية

محمد بن أحمد الأبيوردي المتوفى سنة ٥٠٧ : أبو يوسف يعقوب بن سليمان الاسفرائيني ، عبد القادر بن داود الواسطي المعروف بحب الدين ، ذكره عبد الحميد بن أبي الحديد قال : « حضرت أنا و غلام بالنظامية ببغداد في بيت عبد القادر بن داود الواسطي المعروف بالحب خازن دار الكتب بها ، وعندنا في البيت باتكين الرومي الذي ولي إربل أخيراً وعندنا أيضاً . جعفر بن مكي الحاجب ... (٢) » .

(١) بتخفيف الراءى على الصحيح كما في شرح ابن الصباغ

(٢) شرح ابن أبي الحديد « مع ٣ - ٣٨٢ »

هذه خلاصة ما كتبت عن المدرسة النظامية ببغداد ، وكانت عدة مدارس تعرف إذ ذاك بالنظامية منهن نظامية نيسابور .

وقد شاعت المدارس بعد نظاميات الوزير نظام الملك شيوعاً عظيماً ، وتأثر الوزراء آثاراً هذا الوزير ، فبنى تاج الملك أبو الغنائم المرزبان بن خسرو وزير ملكشاه السلجوقي أيضاً مدرسة ببغداد للاحقة سماها التاجية ، وجعل الشيخ أبا بكر الشاشي مدرسها ، وكان افتتاحها سنة ٤٨٢ هـ ثم بنيت ببغداد المدرسة التقتية نسبة إلى ثقة الدولة بن الأتباري ، والمدرسة التقتية بناها حمارتكين التقتي ، وقد قدمنا أنها تعرف بالمدرسة البهائية ، ومدرسة غير الدولة ابن المطلب ، والمدرسة السكالية ، والمدرسة الشرفية ، والجهادية ، والزمردية ، والبشيرية ، والعصية ، والبكرية ، والمستنصرية ، والحيلية ، والنعمانية ، ومدرسة عبد الوهاب ، ومدرسة ابن الأثير ، والمدرسة الاسماعيلية ، والمرجانية ، والمسعودية ، ومدرسة الايكجية (١) . وأعظمهن أوقافاً وسعة واحتفالاً وتأثيراً واشتهاراً ونسراً لتثقافة الاسلامية « المدرسة المستنصرية » نسبة إلى المستنصر بالله العباسي ، ولا تزال آثارها قائمة على شط دجلة ببغداد الشرفية ، وتليها في العظمة المدرسة المرجانية نسبة إلى أمين الدين مرجان بن عبد الله الرومي والى بغداد في زمن السلطان أويس الجلجاري ، وهو من السلاطين المعروفين بالشيخ حسنية ، وأصلهم من المغول ، وهذه المدرسة اليوم اسمها « جامع مرجان » بديعة البناء عظيمة الأوقاف مدهشة الرياسة منقوشة جدرانها بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية والشروط الوقفية وذكر الوقوف ، وهي من مبانيات منتصف القرن الثامن للهجرة .

هنا تقف القلم اليوم وسنبتهل الفرص للكتابة عن المدرسة المستنصرية التي ذاع صيتها في الآفاق ، وانتشر طلابها في أقطار الأرض ، وشاع فضلها في أرجائها حتى غطت على شجرة المدارس كلها ، والله المعين .

مصطفى جواد

[بغداد]

(١) ذكرنا بين هذه المدارس مع قول ابن جبير أنفاً

اطبعوا مطبوعاتكم

في

مطبعة المعرفة

فهي مستعدة لطبع الكتب والمجلات والجرائد بنهاية الدقة والاتقان
الادارة : رقم ٤ شارع عبد العزيز بالقاهرة